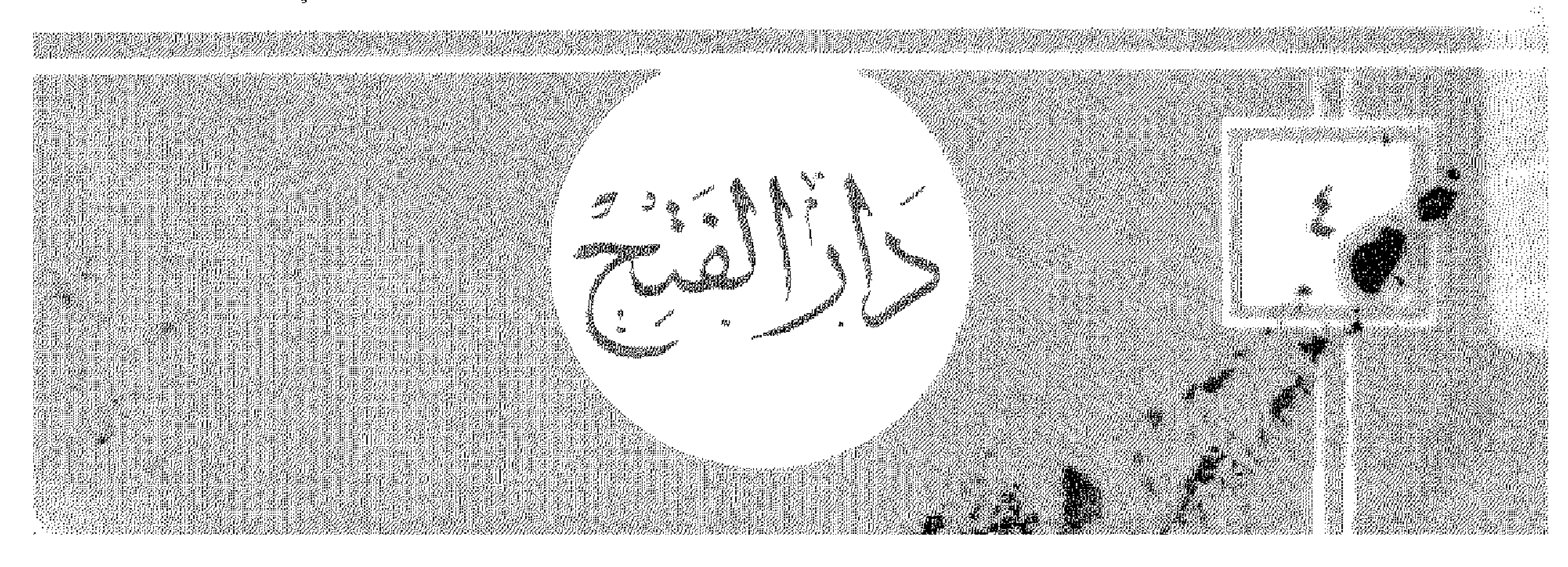
وقل رب زدني علما

العلم النافع

كشف الكربة
فى وصف حال أهل الغربة

للحافظ زين الدين بن رجب الحنبلي

راجعها وعلق عليها : الدكتور اسامة محمد عبد العظيم حمزة



اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية

سلسلة العلم النافع
٤

كشف الكربة

في وصف حال أهل الغربة

للحافظ زين الدين بن رجب الحنبلي

راجعها وعلق عليها :
الدكتور اسامة محمد عبد العظيم حمزة

الناشر
دار الفتـــح

الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ ــ ١٩٨٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اللهم صل على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته ، كما صليت على آل ابراهيم انك حميد مجيد .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا » .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » .

أما بعد ..

فيرجع الفضل فى تقديم هذه الرسالة القيمة للقراء ـ لأول مرة ـ الى فضيلة الشـيخ أحمد الشرباصى ـ رحمه الله ـ الذى عنى بها واضاف اليها مقدمات وطبعها تحت اسم « غربة الاسلام » قبل ثلاثين سنة فجزاه الله خيرا .

وقد تضمنت هوامش هذه الطبعة الأمور الآتية :

ـ تخـريج الأحاديث بالدلالة على مواضـعها ، والكلام على أسانيدها .

ـ شرح غريب الحديث وغيره بالرجوع الى شروح الحديث وكتب اللغة .

ـ اكمال سياق ما أشار اليه المصنف من الأحاديث تبركا بها .

ـ مقابلة النصـوص التى نقلهـا ابن رجب على أصلها وتقويمها منه .

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الرسـالة مؤلفهـا ومحققها والساعين فى نشرها والناظرين فيها .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ،

اسامة محمد عبد العظيم
دكتوراه فى الشريعة الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغى لكرم وجهه ، وعز جلاله ! وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما !

خرج مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى[1] للغرباء »اوخرجه الامام أحمد [2] ، وابن ماجه[3] من حديث ابن مسعود بزيادة فى آخره وهى « قيل : يا رسول الله ومن الغرباء ؟ قال : النزاع [4] من

(١) طوبى : قيل معناها : فرح وقرة عين ، وقيل : حسنى لهم ، وقيل غير ذلك .

(٢) المسند (٥/٢٩٦) قال الشيخ شاكر : اسناده صحيح .

(٣) برقم ٣٩٨٨ .

(٤) والنزاع (جمع نازع ونزيع) وهو الغريب الذي نزع عن أهله وعشيرته ، أى : بعد وغاب .

اى : طوبى للمهاجرين الذين هجروا اوطانهم فى الله تعالى .

القبائل » وخرجه أبو بكر الآجرى وعنده « قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : الذين يصلحون اذا فسد الناس » وخرجه غيره وعنده « قال : الذين يفرون بدينهم من الفتن » ! وخرجه الترمذى [1] من حديث كثير بن عبد الله المزنى عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الدين بدأ غريبا وسيرجع غريبا فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدى من سنتى » ، وخرجه الطبرانى من حديث جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى حديثه « قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : الذين يصلحون حين فساد الناس [2] » ! وخرجه أيضا من حديث شريك بن سعد بنحوه ، وخرجه الامام أحمد

---

(١) الترمذى (٥/١٨) وقال : حديث حسن صحيح

(٢) عزاه الهيثمى للطبرانى فى الثلاثة من زواية سهل بن سعد بلفظ : « الذين يصلحون عند فساد الناس » ، قال : ورجاله رجال الصحيح غير بكر بن سليم وهو ثقة (٧/٢٧٨) .

من حديث سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى حديثه « فطوبى يومئذ للغرباء اذا فسد الناس » ، وخرجه الامام أحمد والطبرانى [1] من حديث عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم « قال : طوبى للغرباء ، قلنا : ومن الغرباء ؟ قال : قوم قليل فى ناس سوء كثير ، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم » ! وروى عن عبد الله بن عمر مرفوعا وموقوفا فى هذا الحديث : « قيل : ومن الغرباء ؟ قال : الفرارون بدينهم يبعثهم الله تعالى مع عيسى بن مريم عليه السلام » !

قوله : « بدأ الاسلام غريبا » يريد به أن الناس كانوا قبل مبعثه على ضلالة عامة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث عياض بن حمار الذى خرجه مسلم [2] : « ان الله نظر الى أهل الأرض

---

(١) قال الهيثمى (٧/٢٧٨) ، وفيه ابن لهيعة ، وفيه ضعف .

(٢) مسلم برقم ٢٨٦٥ ــ والمراد ببقايا أهل الكتاب : الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل .

فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب » .
فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ودعا الى الاسلام
لم يستجب له فى أول الأمر الا الواحد بعد الواحد
من كل قبيلة ، وكان المستجيب له خائفا من عشيرته وقبيلته
يؤذى غاية الأذى وينال منه وهو صابر على ذلك فى
الله عز وجل ، وكان المسلمون اذ ذاك مستضعفين
يشردون كل مشرد ويهربون بدينهم الى البلاد النائية
كما هاجروا الى الحبشـــة مرتين ، ثم هاجروا الى
المدينة ، وكان منهم من يعـــذب فى الله ومنهم من
يقتل ، فكان الداخلون فى الاسلام حينئذ غرباء ثم
ظهر الاسلام بعد الهجرة الى المدينة وعز ، وصار
أهله ظاهرين كل الظهور ، ودخل الناس بعد ذلك فى
دين الله أفواجا ، وأكمل الله لهم الدين ، وأتم عليهم
النعمة ، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر
على ذلك ، وأهل الاسلام على غاية من الاستقامة فى
دينهم ، وهم متعاضدون متناصرون ، وكانوا على

ذلك فى زمن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . ثم عمل الشيطان مكائده على المسلمين وألقى بأسهم بينهم ، وأفشى فيهم فتنة الشبهات والشهوات . ولم تزل هاتان الفتنتان تتزايدان شيئا فشيئا حتى استحكمت مكيدة الشيطان وأطاعه أكثر الخلق ، فمنهم من دخل فى طاعته فى فتنة الشبهات ، ومنهم من دخل فى فتنة الشهوات ، ومنهم من جمع بينهما . وكل ذلك مما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بوقوعه !

فأما فتنة الشبهات فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير وجه أن أمته ستفترق على أزيد من سبعين فرقة على اختلاف الروايات فى عدد الزيادات على السبعين وأن جميع تلك الفرق فى النار الا فرقة واحدة وهى ما كانت على ما هو عليه وأصحابه (١) صلى الله عليه وسلم ! وأما فتنة الشهوات

---

(١) ولفظ الترمذى : «وان بنى اسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار الا ملة واحدة ، قال : من هى يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه واصحابى » وقال : حديث حسن غريب (٧/٤٠٠) .

ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر وعن النبى صلى الله عليه وسلم « قال : اذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم أى قوم أنتم ؟ قال عبد الرحمن بن عوف : نقـول كما أمرنا الله ، قال : أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون [1] » ! وفى صحيح البخارى عن عمرو بن عوف عن النبى صلى الله عليه وسلم « قال : فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم » [2] ! وفى الصحيحين من حديث عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم معناه أيضا .

---

(١) مسلم برقم ٢٩٦٢ ـ ابن ماجه برقم ٣٩٩٦
نقول كما أمرنا الله : معناه نحمده ونشكره ونسـأله المزيد من فضله .
التنافس الى الشىء : المسابقة اليه وكراهة اخذ غيرك اياه ، وهو اول درجات الحسد وأما الحسـد ، فهو تمنى زوال النعمـة عن صـاحبها ، والتـدابر : التقاطع .
(٢) البخارى (٤/١١٨) .

ولما فتحت كنوز كسرى على عمر بن الخطاب رضى الله عنه بكى وقال : ان هذا لم يفتح على قوم قط الا جعل الله بأسهم بينهم أو كما قال[1]، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يخشى على أمته هاتين الفتنتين كما فى مسند الامام أحمد عن أبى برزة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انما أخشى عليكم الشهوات التى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن » وفى رواية « ومضلات الهوى » [2] ، فلما دخل أكثر الناس فى هاتين الفتنتين أو احداهما أصبحوا متقاطعين متباغضين بعد أن كانوا اخوانا متحابين متواصلين فان فتنة الشهوات عمت غالب الخلق ففتنوا بالدنيا وزهرتها وصارت غاية قصدهم لها يطلبون ، وبها يرضون ، ولها يغضبون ، ولها يوالون ، وعليها يعادون ؛ فقطعوا لذلك أرحامهم

---

(١) راجع السياق فى البداية والنهاية (٧/٧٠)

(٢) بلفظ شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى قال المنذرى (١/٨٢) : رواه أحمد والبزار والطبرانى فى معاجمه الثلاثة ؛ وبعض أسانيدهم رواته ثقات .

وسفكوا دماءهم ، وارتكبوا معاصى الله بسبب ذلك !

وأما فتنة الشبهات والأهواء المضلة فبسببها تفرق أهل القبلة وصاروا شيعا ، وكفر بعضهم بعضا ، وأصبحوا أعداء ، وفرقا ، وأحزابا بعد أن كانوا اخوانا ، قلوبهم على قلب رجل واحد فلم ينج من هذه الفرق كلها الا الفرقة الواحدة الناجية وهم المذكورون فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » (١) !

وهم فى آخر الزمان الغرباء المذكورون فى هذه الأحاديث الذين يصلحون اذا فسد الناس ، وهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من السنة ، وهم الذين يفرون بدينهم من الفتن ، وهم النزاع من

---

(١) البخارى (٤/٢٥٢) ـ مسلم برقم ١٧٠ ـ الترمذى (٤/٥٠٤) ـ ابن ماجه برقم ٣٩٥٢ .

القبائل ، لأنهم قلوا فلا يوجد فى كل قبيلة منهم الا الواحد ، والاثنان ، وقد لا يوجد فى بعض القبائل منهم أحد كما كان الداخلون فى الاســلام فى أول الأمر كذلك ، وبهذا فسر الأئمة هذا الحديث .

قال الأوزاعي فى قوله صلى الله عليه وسلم : « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » .. أما أنه ما يذهب الاسلام ولكن يذهب أهل السنة حتى ما يبقى فى البلد منهم الا رجل واحد) ، ولهذا المعنى يوجــد فى كلام السلف كثيرا مدح الســنة ووصفها بالغربة ووصف أهلها بالقلة ، فكان الحسن رحمه الله تعالى يقول لأصحابه : « يا أهل السنة ترفقوا ــ رحمكم الله ــ فانكم من أقل الناس » !

وقال يونس بن عبيد : « ليس شيء أغرب مــن السنة وأغرب منها من يعرفها » ، وروى عنه أنه قال: أصبح من اذا عرف بالسنة فعرفها غريبا وأغرب منه من يعرفها » ! .

وعن سفيان الثورى قال : « استوصوا بأهل السنة

خيرا فانهم غرباء » • ومراد هؤلاء الأئمة بالسنة طريقة النبى صلى الله عليه وآله وسلم التى كان عليها هو وأصحابه السالمة من الشبهات ، والشهوات ، ولهذا كان الفضيل بن عياض يقول : « أهل السنة من عرف ما يدخل فى بطنه من حلال » وذلك لأن أكل الحلال من أعظم خصال السنة التى كان عليها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم •

ثم صار فى عرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم السنة عبارة عما سلم من الشبهات فى الاعتقادات خاصة فى مسائل الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر • وكذلك فى مسائل القدر ، وفضائل الصحابة • وصنفوا فى هذا العلم تصانيف وسموها كتب السنة وانما خصوا هذا العلم باسم السنة لأن خطره عظيم والمخالف فيه على شفا هلكة ! وأما السنة الكاملة فهى « الطريقة السالمة من الشبهات ، والشهوات » كما قال الحسن ، ويونس بن عبيد ، وسفيان ،

والفضيل ، وغيرهم .. ولهذا وصف أهلهـا بالغربة فى آخر الزمان لقلتهم وغربتهم فيه . ولهـذا ورد فى بعض الروايات كما سبق فى تفسير الغرباء « قـوم صالحون قليل فى قوم سوء كثير ، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم » وفى هذا اشارة الى قلة عددهم وقلة المستجيبين لهم والقابلين منهم وكثرة المخالفين لهـم والعاصين لهم . ولهذا جاء فى أحاديث متعددة مدح المتمسك بدينه فى آخـر الزمان وأنه كالقابض على الجمـر [1] وأن للعامل منهـم أجر خمسـين ممن قبلهم لأنهم لا يجدون أعوانا فى الخير .

---

(١) منها ما خرجـه الترمذى (٥/٢٥٧ ـ ٢٥٨) وقال : حديث حسن غريب ، ولفظه : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذى رأى برأيـه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام ، فان من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم »

وهؤلاء الغـرباء قسمان ، أحدهما : من يصـلح نفسه عند فسـاد النـاس ، والثانى : من يصـلح ما أفسد الناس من السنة وهو أعلى القسمين ، وهو أفضلهما ! وقد خرج الطبرانى وغيره باسناد فيـه نظر [1] من حديث أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أن لكل شيء اقبالا وادبارا وأن من اقبال هذا الدين ماكنتم عليه من العمى والجهالة وما بعثنى الله به ، وأن من اقبال هذا الدين أن تفقه القبيـلة بأسرها حتى لا يوجد فيها الا الفاسق والفاسـقان فهما مقهوران ذليلان ان تكلما قمعا وقهرا واضطهدا، وان من ادبار هذا الدين أن تجفو القبيـلة بأسرها حتى لا يرى فيها الا الفقيه والفقيهان فهما مقهوران ذليلان ان تكلما فأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر قمعا وقهرا واضطهدا فهما مقهوران ذليلان لا يجـدان على ذلك أعوانا ولا أنصارا » !

---

(١) قال الهيثمى (٢٦٤/٧) وفيه على بن يزيد ، وهو متروك .

فوصف فى هذا الحديث المؤمن العالم بالسنة الفقيه فى الدين بأنه يكون فى آخر الزمان عند فساده مقهورا ذليلا لا يجد أعوانا ولا أنصارا !

وخرج الطبرانى أيضا باسناد فيه ضعف عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل فى ذكر أشراط الساعة قال : « وأن من اشراطها أن يكون المؤمن فى القبيلة أذل من النقد » [1] والنقد هم الغنم الصغار ، وفى مسند الامام أحمد عن عبادة ابن الصامت أنه قال لرجل من أصحابة : « يوشك ان طالت بك الحياة أن ترى الرجل قد قرأ القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فأعاده وأبداه وأحل حلاله وحرم حرامه ونزل عند منازله لا يجوز فيكم الا كما يجوز الحمار الميت [2] » ومثله قول ابن

---

(١) النقد (بالتحريك) : جنس من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه تكون بالبحرين . كذا فى اللسان ، والحديث قال الهيثمى (٧/٣٢٣) : وفيه سيف بن مسكين وهو ضعيف .

(٢) قال فى المصباح : جاز المكان يجوزه جوزا وجوازا : سار فيه (١٤٠) والمعنى انه ضائع المنزلة بينهم .

مسعود : « يأتى على الناس زمان يكون المؤمن فيه أذل من الأمة » .

وانما ذل المؤمن آخر الزمان لغربتـه بين أهـل الفساد من أهل الشبهات والشهوات ، فكلهم يكرهه ويؤذيه لمخالفـة طريقتـه لطريقتهـم ، ومقصـوده لمقصودهم ، ومباينته لما هم عليـــه ! ولما مات داود الطائى قال ابن السـماك : « ان داود نظر بقلبه الى ما بين يديه فأغشى بصر قلبـه بصر العيون فكأنه لم ينظر الى ما أنتم اليه تنظـرون وكأنكم لا تنظرون الى ما اليه ينظر فأنتم منه تعجبون وهو منكم يعجب استوحش منكم أنه كان حيا وسط موتى » .

ومنهم من كان يكرهه أهله وولده لاسـتنكار حاله ، سمع عمر بن عبد العزيز امرأته مرة تقـول : اراحنا الله منك ، قال آمين !

وقد كان السلف قديما يصـفون المؤمن بالغربة فى زمانهم كما سبق مثله عن الحسن ، والأوزاعى ، وسفيان ، وغيرهم !

ومن كلام أحمد بن عاصم الأنطاكى ــ وكان من

كبار العارفين فى زمان أبى سليمان الدارانى ـــ قال : « انى أدركت من الأزمنة زماناً عاد فيه الاسلام غريبا كما بدأ وعاد وصف الحق فيه غريبا كما بدأ ، ان ترغب فيه الى عالم وجدته مفتونا بحب الدنيا ، يحب التعظيم والرئاسة . وان ترغب فيه الى عابد وجدته جاهلا فى عبادته مخدوعا صريع عدوه ابليس قد صعد به الى أعلى درجة العبادة وهو جاهل بأدناها ، فكيف له بأعلاها ؟ وسائر ذلك من الرعاع [1]؛ همج عوج ، وذئاب مختلسة ، وسباع ضارية ، وثعالب جارية هذا وصف عيون أهل زمانك من حملة العلم والقرآن ، ودعاة الحكمة» خرجه أبو نعيم فى الحلية[2].

فهذا وصف أهل زمانه فكيف بما حدث بعده من العظائم والدواهى التى لم تخطر بباله ولم تدر فى خياله ؟!

(١) الرعاع (بوزن السحاب) : السفلة من الناس والمفرد : رعاعة والهمج : جمع همجة ، وهى ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمر وأعينها ، ويقال لرذالة الناس : همج كذا فى اللسان ـــ وعوج : جمع أعوج .

(٢) حلية الأولياء (٢٨٦/٩.١٠) .

وخرج الطبرانى من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « المتمسك بسنتى عند فساد أمتى له أجر مائة شهيد » [1] ! وخرج أبو الشيخ الاصبهانى باسناده عن الحسن قال : « لو أن رجلا من الصدر الأول بعث اليوم ما عرف من الاسلام شيئا الا هذه الصلاة ثم قال : أما والله لئن عاش الى هذه المنكرات فرأى صاحب بدعة يدعو الى بدعته أو صاحب دنيا يدعو الى دنياه فعصمه الله عز وجل وقلبه يحن الى ذلك السلف الصالح فيتبع آثارهم ويستن بسنتهم ويتبع سبيلهم كان له أجر عظيم »، وروى ابن مبارك عن الفضيل عن الحسن أنه ذكر الغنى المترف الذى له سلطان يأخذ المال ويدعى أنه لا عقاب فيه ، وذكر المبتدع الضال الذى خرج بسيفه على المسلمين وتأول ما أنزل الله فى الكفار على المسلمين ، ثم قال : سنتكم والذى لا اله الا هو بينهما : بين الغالى والجافى ، والمترف والجاهل فاصبروا عليها فان أهل

---

(1) قال الهيثمى (١/١٧٢) : وفيه محمد بن صالح العدوى ولم ار من ترجمه ، وبقية رجاله ثقات، وقال المنذرى (١/٧٣) باسناد لا بأس به .

السنة كانوا أقل الناس الذين لم يأخذوا مع أهل الاتراف فى اترافهم ولا مع أهل البدع فى أهوائهم وصبروا على سنتهم حتى أتوا ربهم فكذلك ان شاء الله فكونوا »، ثم قال : « والله لو أن رجلا أدرك هذه المنكرات يقول هذا : هلم الى ، ويقول هذا : هلم الى ، فيقول : لا أريد الا سنة محمد صلى الله عليه وسلم يطلبها ويسأل عنها ان هذا ليعرض له أجر عظيم فكذلك فكونوا ان شاء الله تعالى ..

ومن هذا المعنى ما رواه أبو نعيم وغيره عن كميل ابن زياد عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : الناس ثلاثة : عالم ربانى [1] ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق [2] ، ويميلون مع

---

(١) الربانى : فى قوله تعالى : « كونوا ربانيين » قال ابن عباس : حكماء علماء حلماء وقال الحسن وغيره : فقهاء أهل عبادة وتقوى (١/٣٧٧) ابن كثير .

(٢) قال فى اللسان : « النعيق : دعاء الراعى الشاء » والناعق هنا : مجاز عن الداعى الى باطل أو حق . وراجع نهج البلاغة (٣٨٦) .

كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا الى ركن وثيق ، ثم ذكر كلاما فى فضــل العــلم الى أن قال : « ها ان ههنا لعلما جما ـ وأشار بيده الى صدره ـ لو أصبت له حملة ، بلى أصبت لقنا [1] غير مأمون عليه مستعملا آلة الدين للدنيا ، ومستظهرا بنعم الله على عباده وبحججه على أوليائه ، أو منقادا لحملة الحق لا بصيرة فى أحنائه [2] ينقدح الشك فى قلبه لأول عارض من شبهة ، ألا لا ذا ولا ذاك ، أو منهوما [3] باللذة سلس القياد للشــهوة ، أو مغــرما بالجمــع والادخار : ليسا من رعاة الدين فى شيء أقرب شيء شبها بهما الأنعام السائمة ، كذلك يموت العلم بموت حامليه ، اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة

---

(١) اى : فهما (بكسر الهاء) غير ثقة كما فى اللسان

(٢) اى لا بصيرة له فى دقائق الحق وخفاياه .

(٣) نهم بالشيء (بالبناء للمفعول) اذا اولع به فهو منهوم (٧٧١) المصباح ومنه الحديث : « منهومان لا يشبعان : منهوم فى علم لا يشبع ، ومنهوم فى دنيــا لا يشبع » خرجه الحاكم (١/٩٢) وصححه واقــره الذهبى .

اما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبينـاته ، وكم ذا ؟ وأين أولئـك ؟ أولئك والله الأقلون عدداً والأعظمون عند الله قدراً ، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين ،واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، أولئك خلفاء الله فى أرضه ، والدعاة الى دينه ، آه... وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى . أولئك خلفـاء الله فى أرضه ، والدعاة الى دينه ، آه آه شوقا الى رؤيتهم انصرف اذا شئت » (١) .

فقسم أمير المؤمنين رضى الله عنه حملة العلم الى ثلاثة أقسام : قسم هم أهل الشبهات ، وهم من لا بصيرة له من حملة العلم ، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة ، فتأخذه الشبهة ، فيقع فى الحيرة والشكوك ، ويخرج من ذلك الى البدع

---

(١) نهج البلاغة (٣٨٥ ـ ٣٨٦) .

والضلالات . وقسم هم أهل الشهوات ، وحظهم نوعان : أحدهما : من يطلب الدنيا بنفس العلم فيجعل العلم آلة لكسب الدنيا ، والثاني : من همه جمع الدنيا واكتنازها وادخارها . وكل هؤلاء ليسوا من رعاة الدين وانما هم كالأنعام ، ولهذا شبه الله تعالى من حمل التوراة ثم لم يحملها بالحمار الذى يحمل أسفارا ، وشبه عالم السوء الذى انسلخ من آيات الله وأخلد الى الأرض واتبع هواه بالكلب ، والكلب والحمار أخس الأنعام وأضل سبيلا ؛ والقسم الثالث من حملة العلم : هم أهله وحملته ورعاته والقائمون بحجج الله وبيناته . وذكر أنهم الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدرا ، اشارة الى قلة هذا القسم وغربته من حملة العلم !

وقد قسم الحسن البصرى رضى الله عنه حملة القرآن الى قريب من هذا التقسيم الذى قسمه على رضى الله عنه لحملة العلم ، قال الحسن : « قراء القرآن ثلاثة أصناف : صنف اتخذوه بضاعة فيتأكلون به ، وصنف أقاموا حروفه وضيعوا حدوده واستطالوا

به على أهـل بلادهم واسـتندوا به لطلب الولاية .
كثر هذا الضرب من حملة القرآن ــ لاكثرهم الله ــ
وضرب عمدوا الى دواء القرآن فوضـعوه على داء
قلوبهم فركدوا به فى محاربهم وحنوا به فى برانسهم
واستشعروا الخـوف ، وارتدوا الحـزن ، فأولئك
الذين يسقى الله بهم الغيث وينصر بهم على الأعداء ،
والله لهؤلاء الضرب فى حملة القرآن أعز من الكبريت
الأحمر بين قراء القرآن » فأخبر أن هذا القسم ــ وهم
قراء القرآن [الذين] [١] جعلوه دواء لقلوبهم فأثار
لهم الخوف والحزن ــ أعز من الكبريت الأحمر بين
قراء القرآن .

ووصف أمير المؤمنين رضى الله عنه هذا القسـم
من حملة العلم بصفات ، منها أنه هجم بهم العلم على
حقيقة البصيرة ، ومعنى ذلك : أن العلم دلهـم على
المقصود الأعظم وهو معرفة الله فخافوه وأحبوه حتى
سهل ذلك عليهم كل ما تعسر على غيرهم ، فلم يصل
الى ما وصلوا اليـه ممن وقف مع الدنيـا وزينتهـا

---

(١) ليست فى الأصل ، ويقتضيها السياق .

وزهرتها وأغتر بها ولم يباشر قلبه معرفة الله وعظمته واجلاله • « فاستلانوا ما استوعر منه المترفون »: فان المترف الواقع مع شهوات الدنيا ولذاتها يصعب عليه ترك لذاتها وشهواتها لأنه لا عوض عنده من لذات الدنيا اذا تركها فهو لا يصبر على تركها • فهؤلاء فى قلوبهم العوض الأكبر بما وصلوا اليه من لذة معرفة الله ومحبته واجلاله كما كان الحسن يقول : « انما أحباء الله هم الذين ورثوا طيب الحياة وذاقوا نعيمها بما وصلوا اليه من مناجاة حبيبهم وبما وجدوا من لذة حبه فى قلوبهم » من كلام يطول ذكره هنا فى هذا المعنى • وانما أنس هؤلاء بما استوحش منه الجاهلون لأن الجاهلين بالله يستوحشون من ترك الدنيا وشهواتها لأنهم لا يعرفون سواها فهى أنسهم ، وهؤلاء يستوحشون من ذلك ويستأنسون بالله وبذكره ومعرفته ، ومحبته ، وتلاوة كتابه ، والجاهلون بالله يستوحشون من ذلك ولا يجدون الأنس به !

ومن صفاتهم التى وصفهم بها أمير المؤمنين على

رضى الله عنه أنهم صحبوا الدنيا بأبدان ، أرواحها معلقة بالنظر الأعلى ، وهذا اشارة الى أنهم لم يتخذوها وطنا ، ولا رضوا بها اقامة ولا مسكنا ، انما اتخذوها ممرا ولم يجعلوها مقرا وجميع الكتب والرسل أوصت بهذا ، وقد أخبر الله تعالى فى كتابه عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه فى وعظه لهم : (يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار) [غافر ٣٩] ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم لابن عمر : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » (١) فكأنك بالدنيا ولم تكن ،وبالآخرة ولم تزل وفى رواية « وعد نفسك من أهل القبور » (٢) ومن وصايا المسيح المروية عنه عليه السلام أنه قال لأصحابه : « أعبروها ولا تعمروها » وعنه عليه السلام أنه قال : « من الذى يبنى على موج البحر دارا ؟ تلك الدنيا فلا تتخذوها قرارا » فالمؤمن فى الدنيا كالغريب المجتاز ببلدة غير مستوطن فيها فهو

---

(١) خرجه البخارى (١١٠/٨)
(٢) سنن ابن ماجه برقم ٤١١٤

يشتاق الى بلده وهمه الرجوع اليه ، والتزود بما يوصله فى طريقه الى وطنه ولا ينافس أهل ذلك البلد المستوطن فيه فى عزهم ولا يجزع مما أصابه عندهم من الذل ، قال الفضيل بن عياض : « المؤمن فى الدنيا مهموم حزين همه مرمة جهازه »[1] وقال الحسن : « المؤمن فى الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ولا ينافس فى عزها له شأن وللناس شأن » وفى الحقيقة فالمؤمن فى الدنيا غريب لأن أباه لما كان فى دار البقاء ثم خرج منها ، فهمه الرجوع الى مسكنه الأول ، فهو أبدا يحن الى وطنه الذى أخرج منه كما يقال : حب الوطن من الايمان ، وكما قيل :

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبدا لأول منزل

ولبعض شيوخنا[2] فى هذا المعنى :

فحى على جنات عدن فانها
منازلك الأولى وفيها المخيم

---

(١) رم الشيء : أصلحه ، والمرمة : الاصلاح .
(٢) هو ابن القيم والأبيات فى كتابه حادى الارواح (٧) .

ولكننا سبى العـــدو فهـــل ترى
نعود الى أوطاننـــا ونسـلم ؟
وقد زعموا أن الغريب اذا نأى
وشطت به أوطانه فهـــو مغـــرم
فأى اغتراب فوق غربتنـــا التى
لها أضحت الأعداء فينا تحكم (١)

والمؤمنون فى هذا القسم أقسام : منهم من قلبه معلق بالجنة ، ومنهم من قلبه معلق عند خالقه ، وهم العارفون • ولعل أمير المؤمنين رضى الله عنـــه انمـــا أشار الى هذا القسم • فالعارفون أبدانهم فى الدنيـــا وقلوبهم عند المولى ، وفى مراسيل الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه : « علامة الطهر أن يكون قلب العبد عندى معلقا ، فاذا كان كذلك لم ينس على كل حال ، واذا كان كذلك مننت عليه بالاشتغال بى كيلا ينسانى ، فاذا لم ينسنى حركت قلبه فاذا تكلم تكلم بى ، واذا سكت سكت بى فذلك

(١) أصلها تتحكم ، فحذفت احدى التاءين تخفيفا

الذى تأتيه المعونة من عندىٰ » ، وأهل هذا الشأن هم غرباء الغرباء وغربتهم أعز الغربة ، فان الغربة عند أهل الطريقة غربتان ظاهرة وباطنة : فالظاهرة غربة أهل الصلاح بين الفساق ، وغربة الصادقين بين أهل الرياء، والنفاق وغربة العلماء بين أهل الجهل وسوء الأخلاق ، وغربة علماء الآخرة بين علماء الدنيا الذين سلبوا الخشية والاشفاق ، وغربة الزاهدين بين الراغبين فيما ينفد وليس بباق ، وأما الغربة الباطنة فغربة الهمة وهى غربة العارفين بين الخلق كلهم حتى العلماء والعباد والزهاد فان أولئك واقفون مع علمهم وعبادتهم وزهدهم وهؤلاء واقفون مع معبودهم لا يعرجون بقلوبهم عنه ، فكان أبو سليمان الدارانى يقول فى صفتهم : « وهمتهم غير همة الناس واردتهم الآخرة غير ارادة الناس ، ودعاؤهم غير دعاء الناس » ، وسئل عن أفضل الأعمال ؟ فبكى وقال : »أن يطلع على قلبك فلا يراك تريد من الدنيا والآخرة غيره» وقال يحيى بن معاذ : « الزاهد غريب الدنيا والعارف

غريب الآخرة » يشير الى أن الزاهد غريب بين أهل الدنيا والعارف غريب بين أهل الآخـرة لا يعـرفه العباد ولا الزهاد ، وانما يعرفه من هو مثله وهمتـه كهمته ، وربما أجتمعت للعارف هذه الغربات كلهـا أو كثير منها أو بعضها فلا يسأل عن غربته حينئذ . فالعارفون ظاهرون لأهل الدنيا والآخرة .. قال يحيى ابن معاذ : « العابد مشهور والعارف مستور ».وربما خفى حال العارف على نفسه لخفاء حالتـه واسـاءة الظن بنفسه ! قال ابراهيم بن أدهم : ما أرى هـذا الأمر الا فى رجل لا يعرف ذلك من نفسه ولا يعرفه النـاس !

وفى حديث سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » [1] ، وفى حديث معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين ان غابوا لم يفتقدوا

---

(١) مسلم (٤/٢٢٧٧) والخفي : معناه الخامل المنقطع الى العبادة والاشتغال بأمور نفسه .

وان حضروا لم يعرفوا »[1] أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « طوبى لكل عبد لم يعرف الناس ولم تعرفه الناس وعرفه الله منه برضوان ، أولئك مصابيح الهدى تجلى عنهم كل فتنة مظلمة » ،وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « كونوا جدد القلوب ، خلقان الثياب مصابيح الظلام تخفون على أهل الأرض وتعرفون فى أهل السماء » فهؤلاء أخص أهل الغربة ، وهم الفرارون بدينهم من الفتن ، وهم النزاع من القبائل الذين يحشرون مع عيسى عليه السلام ، وهم بين أهل الآخرة أعز من الكبريت الأحمر فكيف يكون حالهم بين أهل الدنيا ، وتخفى حالهم غالبا على الفريقين ، كما قال :

تواريت عن دهرى بظل جناحه
فعينى ترى دهرى وليس يرانى

---

(١) خرجه الحاكم فى المستدرك (٤/١) وصححه وأقره الذهبى .

ولو تسأل الأيام ما اسمي ؟ لما درت
وأين مكاني ؟ ما عــرفن مــكاني

ومن ظهر منهم للناس فهو بينهم ببدنه ، وقلبــه معلق بالنظر الأعلى كمــا قال أمير المؤمنين رضى الله عنه فى وصفهم :

جسمى معى غير أن الروح عندكم
فالجســم فى غربة والروح فى وطن

وكانت رابعة العدوية رحمها الله تعالى تنشد فى هذا المعنى :

ولقد جعلتك فى الفــؤاد محــدثى
وأبحت جســمى مــن أراد جلوسى

فالجســــــم منى للحبيب مؤانس
وحبيب قلبى فى الفــــؤاد أنيسى

وأكثرهم لا يقوى على مخالطة الخلق فهو يفــر الى الخلوة ليستأنس بحبيبه . ولهــذا كان أكثرهم

يطيل الوحدة .. وقيل لبعضهم : ألا تستوحش ؟ قال : كيف أستوحش وهو يقول : أنا جليس من ذكرني ؟ ، وقال آخر : وهل يستوحش مع الله أحد ؟ وعن بعضهم: من استوحش من وحدته فذلك لقلة أنسه بربه ، وكان يحيى بن معاذ كثير العزلة والانفراد فعاتبه أخوه فقال له : ان كنت من الناس فلا بد لك من الناس . فقال يحيى : ان كنت من الناس فلابد لك من الله ، وقيل له : اذا هجرت الخلق مع من تعيش ؟ قال : مع من هجرتهم له .

وأنشد ابراهيم ابن أدهم :

هجرت الخلق طراً في هواكا

يتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعتني في الحب ارباً

لما حن الفؤاد الى سواكا (١)

وعوتب ابن غزوان على خلوته فقال : اني أصبت

---

(١) طرا : جميعا ، الارب : العضو .

راحة قلبي فى مجالسة من لديه حاجتي،ولغربتهم من الناس ربما نسب بعضهم الى الجنون لبعد حاله من أحوال الناس كما كان أويس يقال ذلك عنه ، وكان أبو مسلم الخولانى كثير اللهج بالذكر لا يفتر لسانه فقال رجل لجلسائه : أمجنون صاحبكم ؟ قال أبو مسلم : يا ابن أخي لكن هذا دواء الجنون ! وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم « اذكروا الله حتى يقولوا : مجنون » [1] وقال الحسن فى وصفهم : اذا نظر اليهم الجاهل حسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، ويقول : قد خولطوا[2] وقد خالط القوم أمر عظيم هم ـ والله ـ فى شغل [3] عن دنياكم ، وفى هذا المعنى قال :

وحرمة الود مالى عنكم عوض
وليس لى فى سواكم سادتى غرض

---

(١) قال الشوكاني : حسنه الحافظ ابن حجر فى اماليه (٢٢) تحفة الذاكرين .

(٢) من قولهم : خولط فلان فى عقله مخالطة : اذا اختل عقله ا هـ اللسان .

(٣) فى الأصل : هيهات والله مشغول . . والتقويم بالسياق .

وقد شرطت على قــوم صــحبتهم
بأن قلبي لكم من دونهم فرضــوا
ومن حديثي بهم قالوا : به مرض
فقلت : لازال عني ذلك المــــرض

وفي الحديث « أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى الى رجل فقال : استحى من الله كما تستحى من رجلين من صالحى عشــيرتك لا يفارقانك » (١) وفي حديث آخــر عنه صلى الله عليــه وســلم قال : « أفضل الايمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت »(٢) وفي حديث آخر أنه سـئل صلى الله عليـه وسـلم ما تزكية المرء نفسه قال : « أن يعلم أن الله معه حيث

---

(١) اسـناده ضعيف ، أفاده الحـافظ العراقى (١٦٦/١).

قال الهيثمي (٢٨٤/١٠) : رواه الطــبراني ، ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم .

(٢) أفاد المناوي (٢٩/٢) أنه ضعيف ، وهو في الكبير (١١٥٥/١) .

كان » . وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم قال : ثلاثة فى ظل الله يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله فذكر منهم رجلا حيث توجه علم أن الله معه [1] ! وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الاحسان فقال : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فأنه يراك » [2] ولأبى عبادة فى هذا المعنى أبيات حسنة أساء بقولها فى مخلوق وقد أصلحت منها أبياتا حتى استقامت على الطريقة :

كأنك رقيبا منك يرعى خواطرى
وآخر يرعى ناظرى ولسانى

---

(١) بلفظ : « ثلاثة فى ظل الله يوم القيامة يوم لا ظل الا ظله : رجل حيث توجه علم أن الله معه ، ورجل دعته امرأة الى نفسها فتركها من خشية الله ، ورجل احب لجلال الله » .

عزاه فى الجامع الأزهر الى الطبرانى فى الكبير عن ابى أمامة ، وقال : وفيه بشير بن نمير وهو متروك (١/١٢١٤) .

(٢) خرجه البخارى (١/٢٠) ومسلم (١/٣٩) من حديث عمر بن الخطاب .

فما بصرت عينــاى بعــدك منظرا
يســوءك الا قلت قــد رمقــانى

ولا بدرت مــن فى بعــدك لفظــة
لغــيرك الا قلت قــد ســـمعانى

ولا خطرت من ذكر غــيرك خطرة
على القلب الا عرجــا بعنـــــانى

اذا ما تسلى القاعدون على الهوى
بــذكر فــلان أو كــلام فــلان

وجدت الذى يسلى سواى يشوقنى
الى قربــكم حتى أمــل مــكانى

واخوان صــدق قد سئمت لقاءهم
وأغضيت طرفى عنهــم ولســـانى

وما الغض أسْلَى عنهم غير [1] أننى
أراك كمــا كل الجهـــات ترانى

---

(١) أسلاه عنه ، وسلاه فتسلى ا.هـ اللســان والسلو طيب نفس الالف عن الفه (٣٣٩) المضباح .

مراجــع التحقيق

١ ــ تفسير القرآن العظيــــم ــ للحافظ ابن كثير ــ شباب الأزهر .

٢ ــ صحيح البخاري ــ ط دار الشعب .

٣ ــ صحيح مسلم ــ فؤاد عبد الباقي ــ عيسى الحلبي

٤ ــ صحيح مسلم بشرح النووي ــ المطبعة المصرية .

٥ ــ سنن الترمذي ــ مطبعة مصطفى الحلبي .

٦ ــ تحفة الاحوذي ــ شرح الترمذي للمباركفوري ــ السلفية بالمدينة المنورة .

٧ ــ سنن ابن ماجه ــ مطبعة عيسى الحلبي .

٨ ــ مسند الامام أحمد ــ مطبعة دار المعارف .

٩ ــ المستدرك على الصحيحين للحاكم ــ دار الكتاب العربي بيروت .

١٠ــ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ــ مكتبة القدس .

١١ــ الجامع الأزهر في حديث النبي الانور للمناوي ــ المكتب العربي الحديث للنشر .

١٢ــ الترغيب والترهيب للمنذرى ــ شباب الأزهر .

١٣ـ المغنى عن حمل الاسفار للعراقى ـ بهامش الاحياء ط . عيسى الحلبى .

١٤ـ فيض القدير للمناوى ـ ط التجارية الكبرى .

١٥ـ الجامع الكبير للسيوطى ـ مجمع البحـــوث الاسلامية .

١٦ـ حلية الأولياء لأبى نعيم ـ الخانجى .

١٧ـ البداية والنهاية لابن كثير ـ مكتبة المعارف ـ بيروت .

١٨ـ لسان العرب لابن منظور ـ دار المعارف .

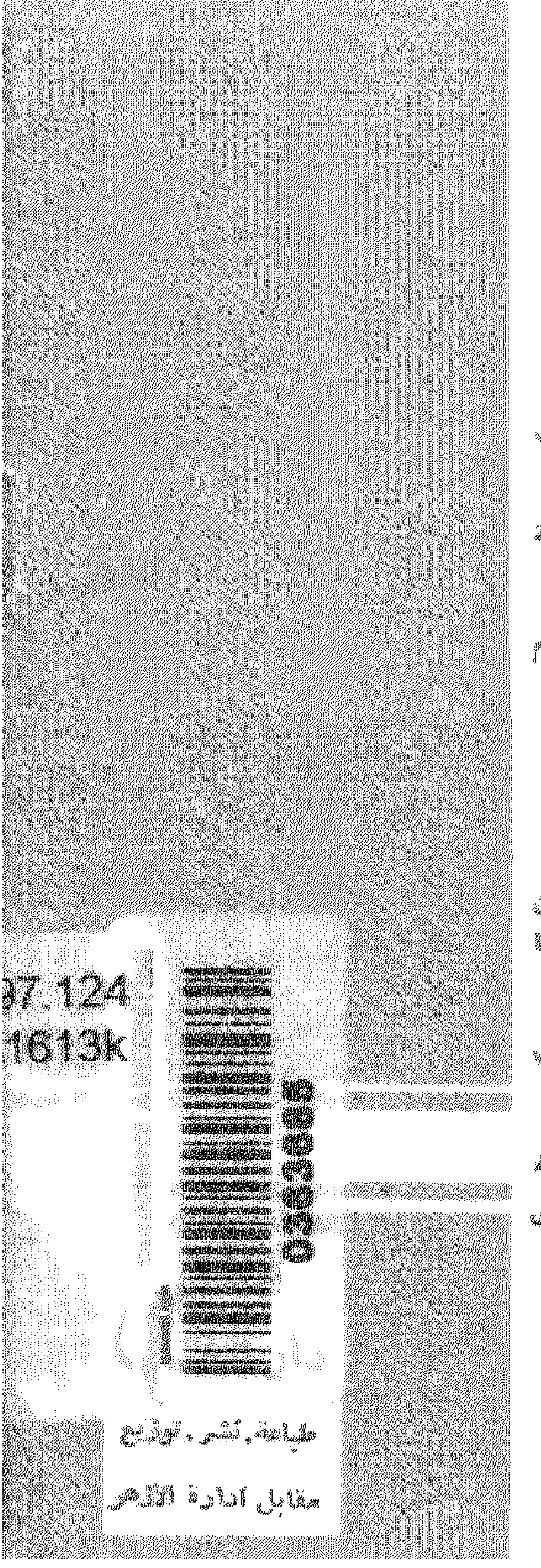
١٩ـ المصباح المنير ـ للفيومى ـ دار الكتب العلمية .

٢٠ـ نهج البلاغة ـ للشريف الرضى ـ دار الشعب .

٢١ـ حادى الأرواح لابن القيم ـ مكتبة المتنبى .

٢٢ـ غربة الاسلام لابن رجب تحقيق الشيخ الشرباصى ـ دار الكتاب العربى .

٢٣ـ تحفة الذاكرين للشوكانى ـ شباب الأزهر .



سلسلة العلم النافع

١ ـ تحقيق كلمة الإخلاص لابن رجب

٢ ـ الخشوع في الصلاة لابن رجب

٣ ـ شرح حديث ما ذئبان جائعان لابن رجب

٤ ـ كشف الكربة ببيان حال أهل الغربة لابن رجب

٥ ـ الصوفية والفقراء لشيخ الاسلام ابن تيمية

٦ ـ رسالة الى كل مسلم لابن القيم

تحت الطبع

١ ـ اختصار الترغيب والترهيب لابن حجر ـ طبعة مشكولة ومحققة تحقيقا علميا

٢ ـ اتحاف الاكابر بتهذيب وترتيب وتحقيق كتاب الكبائر للذهبي

٣ـ يقظة أولى الاعتبار ـ الطبعة الثانية ـ مشكولة الآيات ، ومزيدة التحقيق